

جبال الأطلس الكبير والحضور الإستعماري
(1912- 1914)

المصطفى فنتير

كان الجبل -بصفة عامة- يمثل سمة بارزة في تاريخ المغرب، وكان حاضرا في بقوة في مرحلة من مراحله التاريخية الكبرى، نظرا لمناعته وخصوصيته، وبرزت هذه الخصوصية و بشكل واضح مع بداية الحضور الإستعماري، الذي حاول أن يكيف سياسته لمواجهة مناعة وقوة الجبل.

فكيف أدت الطبيعة الجبلية كحتمية جغرافية إلى ظهور سياسة استعمارية إرتبطت بالجبل؟ أو بصيغة أخرى ، ماهي الخطة الاستراتيجية التي وظفتها فرنسا لمواجهة تحديات جبال الأطلس الكبير التي كانت تمثل مجالا خلفيا يهدد استقرار الإستعمار الفرنسي في المغرب؟

مما لا جدال فيه أن كتلة الأطلس الكبير ، كانت تشكل عائقا طبيعيا وبشريا يحول دون إنتشار وتوسع قوات الاحتلال الفرنسي فهو عائق طبيعي يمتد على شكل كتلة عظيمة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على مسافة 800 كلم ، وداخل هذه الكتلة ترتفع قمم شامخة يتعدى إرتفاعها 4000 م، وتتوسطها ممرات وفجاج. وهو بالإضافة الى ذلك عائق بشري بالطبيعة الحربية لسكانه من الأصل البربري ،الذين إنتظموا في ثلاث مجموعات قوية هي :

-مجموعة كلاوة الممتدة على السفح الشمالي والجنوبي للأطلس.

-مجموعة متوكة التي تشغل السفح الشمالي للأطلس الممتد من ايمنتانوت إلى بلاد حاحا.

-مجموعة كندافة الممتدة على السفح الأوسطمن الأطلس الكبير.

وقد توفرت لهذه المجموعات أفضل الشروط ليتحكم شيوخها، بل قوادها الكبار في ممرات استراتيجية ، أقاموا من أجل مراقبتها والتحكم فيها قصبات وقلاع وحصون مشيدة من بشكل قوي ومنيع وكل قائد من قواد هذه المجموعات كان يعتبر

سيد المنطقة .

فالقائد المدني الكلاوي يحكم قبيلة كلاوة ويتحكم في ممر تلوات ، ويعتبر "تيزي ن تلوات " الممر الوحيد الرابط بين مراكش وورززات. أما القائد الطيب الكندافي -فهو بدوره يتحكم في في قبيلة كندافة وفي ممرها الرئيسي "ثلاثن يعقوب" وهو ايضا الممر الوحيد الرابط بين مراكش وتارودانت. في حين يتحكم القائد عبدالملك المتوكي في قبيلة متوكة وممرها "تيزي ن معاشو" الرابط بين سوس ومراكش.

فالأهمية السياسية لهؤلاء القواد ترتكز بالأساس على تحكمهم في هذه الممرات الاستراتيجية الرابطة بين مراكش وباقي الجهات الجنوبية عبر الأطلس الكبير، وكان هذا الوضع يجعلهم في منأى عن كل الأخطار ، ويوفر لهم إمكانية مراقبة كل الأنشطة التجارية التي كانت تتم بين مراكش وباقي جهات الجنوب، حيث أن القوافل التجارية التي تمر عبر هذه الممرات والفجاج كانت تؤدي ضريبة المرور على قوافلها لقواد الأطلس، مما وفر لهم إمكانيات مادية ساعدتهم على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم داخل مجالهم الأطلسي.

فكيف إنتقلت جبال الأطلس الكبير من منطقة عبور وتواصل إلى منطقة تخوم وحدود إبان الحضور الإستعماري؟ او بعبارة أخرى ، ما هو الموقع الذي صارت عليه جبال الأطلس الكبير في المخطط الإستعماري؟

من الواضح أن الحضور الإستعماري في المغرب اصطدم في سنواته الأولى بحدثين بارزين كان لهما أكبر الأثر في تحديد مسار السياسة الإستعمارية في المغرب لاحقا، وضبط خطة استراتيجية للتعامل مع المجال الجبلي بما فيه جبال الأطلس الكبير بصفة خاصة:

الحدث الأول ، هو حدث داخلي تجلى بصفة خاصة في ظهور حركة أحمد الهيبة.

الحدث الثاني، خارجي وتجلى -على الخصوص- في الظروف التي واكبت إندلاع الحرب العالمية الأولى.

فما هو تأثير هذاين الحدثين على السياسة الفرنسية في المجال الأطلسي؟

1- مكانة الأطلس الكبير في المخطط الإستعماري الفرنسي بعد ظهور حركة أحمد الهيبة.

يجب الإشارة في البداية إلى أنه منذ التوقيع على معاهدة الحماية سنة 1912 أعلن المجاهد أحمد الهيبة نفسه سلطانا للجهاد، وأخذ يتأهب لاجتياز جبال الأطلس الكبير ليحل بمدينة مراكش من أجل تنظيم الجهاد ضد القوات الفرنسية. وهذا الظهور المفاجئ لحركة أحمد الهيبة، أحدث ردود فعل متباينة ومرتبكة سواء من لدن قواد الأطلس الكبير او من لدن القوات الفرنسية.

لقد كان لظهور حركة أحمد الهيبة وقع كبير على سياسة التوازنات التي بدأت تظهر بين قواد الأطلس منذ الإعلان عن بيعة مولاي عبدالحفيظ، لكن هذه التوازنات أصيبت بالإختلال بمجرد إعلان الحماية رسميا على المغرب وتنازل السلطان مولاي عبدالحفيظ، وأصبح أمام قواد الأطلس الكبير الإختيار بين أمرين، إما تأييد حركة أحمد الهيبة والدخول في الموجهة مع سلطة الحماية، وإما الإنصياع لقرار الحماية والوقوف بجانب القوات الفرنسية.

لقد كان لقواد الأطلس في بادئ الأمر استعداد لمناهضة حركة أحمد الهيبة، لكنهم تخلوا مضطرين لنصرته. ويشير العباس بن ابراهيم المراكشي (1) إلى الحالة التي كان عليها قواد الأطلس الكبير آنذاك قائلا: "إن الزعيم الكندافي كتب له باكورود عن طريق أكادير، وكان غرضه في ذلك أن لا يمر على إيالته فيفسد ما عليه... في حين كتب له كذلك المتوكي وأشار عليه بالمرور من أمسكرود وكان قصده من ذلك هو نفس ما قصده الكندافي، وقد حاول المتوكي عرقلة عملية عبور أحمد الهيبة عن طريق أمسكرود، فوجه أخاه لملاقاته ومحاربته إذ كانت له قدرة على ذلك، وحين علم أحمد الهيبة بدلك أمر أتباعه برميهم بالحجارة، ففعلوا ونزع منهم نحو أربعين فرسا، فأصلح ذات بينهم بعض أتباعه وتشفع فيه، فكف عنه وأرجع اليه خيلهم" (2).

وبعد إجتياز أحمد الهيبة لجبال الأطلس الكبير وحلوله بمدينة مراكش تغيرت

---

(1) المركشي العباس بن إبراهيم، رسالة حول ثائر سوس أحمد الهيبة، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 320.
(2) نفسه، ص 507.

الأوضاع بشكل سريع ومفاجئ، فأرتجت القبائل الأطلسية وثارت على رؤسائها، لأن أحمد الهيبة كلما مر بقبيلة ينادي مناديه أنه لاقائد ولا شيخ(1). كما أنه مهما وصل محلا فيه مكوس أحرقه وأمر المنادي أن ينادي بأسقاطه(2).

ثم إن قواد الأطلس الكبير لم يعد باستطاعتهم التحكم في مناطق نفوذهم، بل أصبحوا بدورهم مضطرين إلى الخضوع ومسايرة الركب، لذلك إتجهت كل الأنظار إلى أحمد الهيبة على أنه قائد الجهاد ومحرر البلاد، فالتفت حوله القبائل الأطلسية.

هذه الوضعية الجديدة جعلت القواد في الجنوب المغربي يجتمعون في مجلس لتدارك الموقف، ويذكر إدريس ولد منو أنه في هذا المجلس كان "...يوصي الجميع ألا يعاملوا الهيبة بمعاملة السلطان، بل بمنزلة رئيس المجاهدين." وأن الجميع اتفق على ذلك، لكنه فوجئ بسلوك قواد الأطلس الذين أخذوا يبندقون واحدا واحدا مجنحين سلاهمهم كما هو المعتاد عند السلاطين"(3).

لقد أدرك قواد الأطلس، في هذه اللحظة الحرجة، بحنكتهم وتجربتهم الواقعية، أن الظروف الجديدة تلتزم منهم التكيف مع التقلبات السياسية بهدف الإحتفاظ بمواقعهم وسلطتهم، فقدموا لأحمد الهيبة بيعة زائفة ومغشوشة في وقت كانوا يتأهبون فيه لعقد تحالفات جديدة مع الطرف الآخر، الذي كان بدوره ينتظر فرصته الذهبية لمد الجسور قصد الإتصال والتحالف مع قواد الأطلس الكبير.

فما هو موقف القوات الفرنسية من حركة أحمد الهيبة؟

كانت قوات الإحتلال الفرنسي، منذ البداية، تسعى إلى وضع خطة لربط الجسور مع قواد الجنوب الذين أبوا استعدادا تاما للتعامل مع فرنسا، ومنهم آنذاك القائد الكلاوي. ،كانت هذه الخطة تسعى لتنمية المتحفظين منهم مثل المتوكي والكندافي(4) إلا أن ظهور حركة أحمد الهيبة طرحت أمام القوات الفرنسية مشاكل صعبة وعويصة أرغمتها على التفكير في مراجعة الخطة لمنع وصول حركة الهيبة إلى مراكش. وكان

---

(1) السوسي محمد المختار، حول مائدة الغداء، ص، 21
(2) المراكشي، م. س، ص 507
(3) السوسي، م.س ص، 92.
(4) Rivet (D), Lyautey..., p 243.

الهدف هو أن تكون جبال الأطلس حزاما وقائيا لمنع مروره ، فاقترح الضابط كانس وضع حزام وقائي أساسه أقامة حلف دفاعي بمعية قواد الأطلس لمنع إجتياز أحمد الهيبة لفجاج الأطلس مقابل تدعيم السلطات الفرنسية لمركز ونفوذ هؤلاء القواد وهم الكلاوي والكندافي والمتوكي، مع أن هذه الخطة كانت من إقتراح هانس، إلا أنه نبه إلى بعض الجوانب السلبية ومنها:

-أن خطة التحالف مع قواد الأطلس الكبير تبقى هي الإختيار الوحيد أمام القوات الفرنسية المرابطة بالمغرب.

-أنه مهما بلغ تأثير قواد الأطلس فسيبقى بسيطا إزاء الحركة الشعبية التي فجرها أحمد الهيبة.

لذلك كان يعتقد أنه لم يكن أمام القوات الفرنسية إلا تبني أحد الخيارين، إما التحالف مع قواد الأطلس لتدعيم سلطتهم ونفوذهم ، وإما إخلاء الداخل والانسحاب من الجنوب والتراجع إلى المناطق الأطلنتيكية(1). وقد إقتنع اليوطي في النهاية بهذه الخطة وأرسل مبعوثين عنه للتفاوض مع قواد الجنوب عموما وبالأخص قواد الأطلس، فأرسل الضابط هانس لمفاوضة كل من الكلاوي والمتوكي، كما أرسل Weisgerber لمفاوضة قائد عبدة عبد بن عمر.

ويحدثنا فايسجربر في كتابه "على عتبة المغرب الحديث" عن طبيعة هذه المهمة مؤكدا أن جانبا منها كان يتصل بالموافقة على القيام بعمل عسكري موحد مع قواد الأطلس الكبيرلصد حركة أحمد الهيبة. وقد أكد القائد العبدي في جوابه على هذه الخطة بأن قبائل الحوز أصبحت لها ميولات نحو الهيبة، كما تحفظ في نفس الوقت من مواقف قواد الأطلس إزاء حركة الهيبة، وذلك في نظره، لأن كلا من الكلاوي والكندافي لا يستطيعان القيام بذلك، في حين أن المتوكي لا يريد، وأكد في النهاية وبشكل صريح أن منع حركة الهيبة يجب أن يكون من الجبل(2).

هذه المفاوضات والإتصالات التي كانت تسعى إلى وضع صيغة للاتفاق حول خطة

---

(1) op, cit , p 242-3

(2) Weisgerber, Au seuil du Maroc Moderne, p346

مـشـتـركـة ضـد أحـمـد الهـيـبـة ، لم تحل دون جـوازه لفـجـاج الأطلس وحلوله بمدينة مراكشبتاريخ 19 غشت 1912، وبمجرد حلوله بالمدينة بدأت تظهر في الأفق مؤثرات في التحالف بين قواد الأطلس من جهة وقوات الإحتلال الفرنسي من جهة أخرى.

وقد أسرع اليوطي إلى تأسيس قيادة عسكرية تحت قيادة مانجان لتحول دون تقدم الهيبة نحو الشمال، واستطاع الضابط مانجان تحقيق انتصارات ضد أحمد الهيبة، وأرغمه على الانسحاب إلى ما وراء جبال الأطلس (تارودانت)، وفتحت الطريق أمام القوات الفرنسية لتحل بالمدينة يوم 8شتنبر 1912، مما طرح عليها مشكلا جديدا ، وهو ضرورة الإحتفاظ بقواتها داخل المدينة لمنع عودة محتملة لأحمد الهيبة. وقد قرر اليوطي ابقاء هذه القوات بالمدينة دون توغلها نحو الداخل. أما الجهات الجبلية فقد وضع خطة لمراقبتها واستعمال القوات المحلية لمواجهتها، وأصدر في هذا الصدد تعليمات صارمة إلى قائد المنطقة جاء فيها:

"إن احتلال مراكش يجب أن يعتبر ـ وإلى إشعار آخر ـ مبتغى تحركنا نحو الجنوب، ويجب أن لا يؤدي إلى استنباطات جديدة تحت أية ذريعة، وألا يدفع إلى توسع إحتلالنا .. ويجب اعتبار جبال الأطلس بمثابة سور أو منحذر لا يمكن تجاوزه ". وبجانب ذلك أشار اليوطي إلى ضرورة إقامة نظام بين الحوز وسوس وعبدة لمباعدة القواد الكبار في قبائل الأطلس، بحيث تكون هذه القبائل حاجزا أمنيا ضد الجهات الآتية من الجنوب مع القيام بحراسة شعب كل منها(1) .

وبعد حلول اليوطي بمراكش دشن رسميا ما يمكن تسميته بسياسة "القواد الكبار"، وذلك بعد إجتماعه بقواد الأطلس والحوز داخل قصر الدارالبيضاء يوم 14 اكتوبر 1912 تحت الرئاسة الإسمية للخليفة السلطاني مولاي بوبكر العلوي، وأبرز اليوطي خلال هذا الإجتماع الخطة العامة لسياسة "القواد الكبار" على الشكل التالي:

- الإستعداد التام للعمل على صياغة وحماية الوضعية المكتسبة للقواد الكبار.
- تقديم الضمانات الكافية لتحقيق سلطتهم وإستمرار نفوذهم .
- النفي لوضع حد لمناقشاتهم السابقة وإقامة توازن بينهم.

---

(1) Les archives militaire de Vincennes , BM 2 / 1955

وركز في النهاية، وبصفة خاصة، على أوجه التطابق في المصالح عن الوجود الفرنسي والقواد الكبار.

وبعد إنتهاء الإجتماع ، أبرق اليوطي إلى الحكومة الفرنسية يخبرها بالنتائج التي إستخلصها ، وقال: "إن هذا الإجتماع التلقائي بمراكش أحدث بلامنازع انطباعا يستحق الذكر لأغلب كبار القواد بمناسبة قدومي، إن الصعوبة تكمن في تخبرهم مع المحافظة على توازن عادل بينهم بسبب التنافس الحاد والحقد اللذين يضمرهما البعض للآخر" (1).

فالخطة التي رسمها اليوطي كانت تعتمد بصفة خاصة على إستعمال قواد الجنوب مع التمييز بينهما داخل مجالين:

- مجال الأطلس الكبير، واعتبره اليوطي هو القاعدة الأساسية لمواجهة الخطر المحتمل لعودة أحمد الهيبة.

- مجال السهول الحوزية الممتد من الرحامنة إلى عبدة ، واعتبره اليوطي هو البوابة الرئيسية للأطلس الكبير والقاعدة الخلفية للمواجهة.

وقد تحكم هذا التمييز بين مجالين في منطق التعامل الفرنسي مع قواد الجنوب الكبار وحدد أبعاد وخلفيات المخطط الفرنسي، وما يهمنا من ذلك هو التعامل مع قواد الأطلس الكبار، ماهي خلفيات وأبعاد الخطة التي رسمها ليوطي في المجال الأطلسي؟

كان المخطط الفرنسي عموما يخفي من عمقه حقيقة الوضع الذي كانت عليه قوات الإحتلال الفرنسي في مواجهة الأخطار المحتملة داخل منطقة تتحكم فيها قوة الجبل، وتتجلى حقيقة هذا الوضع في النقط التالية:

- نقص في الأعداد العسكرية والتجهيزات الحربية والأطر السياسية.

-الخوف من أي تورط أو مجابهة عسكرية قد لايتم التحكم في نتائجها.

-ملأ الفراغ السياسي والإداري بأطر محلية تستطيع القوات الفرنسية بواسطتهم التحكم في مختلف جهات الجنوب والأطلس.

Les archives militaire de Vincennes, AM 6 / Octobre 1912. (1)

تلك هي العناصر الأساسية التي كانت تتحكم في تحديد ملامح السياسة العامة الفرنسية كما رسمها اليوطي، لكنها في المجال الأطلسي اعتمدت على ما يسمى "سياسة القواد الكبار"، والتي كان من أهم سماتها:

- إعتبار الأطلس الكبير مجالا غير مغر بالنسبة للمستوطنين الفرنسيين،على الأقل في السنوات الأولى من الإحتلال، ولن يكون مغريا إلا على المدى البعيد.

- إعتنبار سكان الأطلس من أصل بربري، يمكن عزلهم وفصلهم عن غرب السهول، وذلك إعتمادا على توظيف خصوصية تاريخ المنطقة.

- إمكانية جعل المجال الأطلسي خارج إطار المراقبة الفرنسية المباشرة، وإبقائه تحت إشراف القواد الكبار المحليين، مع تقديم الدعم والمساعدة اللازمتين مقابل تقديم الولاء والإخلاص للإقامة العامة الفرنسية.

فالمجال الأطلسي في المنظور الإستعماري كان يمثل استثناء في المخطط الفرنسي العام، إعتمد في البداية على مواجهة الظرفية الخاصة التي برزت مع حركة أحمد الهيبة، ثم سرعان ما تحول إلى مخطط واع ومقصود ومبرر رسميا بمبررات منها:

1- إعتماد قواد الأطلس في إطار سياسة القواد الكبار يتفق مع المبدأ العام للحماية.

2- مراقبة الأطلس ستكون بواسطة أطر محلية بدلا من المراقبة الإدارية والعسكرية المباشرة.

3- إعتماد هذه الخطة يوفر على القوات الفرنسية التكاليف المادية والبشرية الباهضة.

4- تطبيق هذه الخطة سيمكن فرنسا من إحترام الأعراف والتقاليد السائدة بالمجال الأطلسي.

لقد حاول اليوطي أن يضفي نوعا من الشرعية على مخططه وأن يلبسه لباسا مغربيا، فاستصدر من السلطان مولاي يوسف مجموعة من ظهائر التعيين لقواد الأطلس تعطيهم الحق في ممارسة سلطتهم داخل قبائلهم الأطلسية بإسم سلطة المخزن. كما دفع بالسلطان إلى القيام برحلة تفقدية إلى الجنوب، وقد أبرزت تعليمات اليوطي إلى قائد المنطقة الهدف من هذه الزيارة على الشكل التالي:

"ومن الأهداف الرئيسية ، في بداية هذه الفترة، يجب أن تكون هي تهيء رحلة السلطان مولاي يوسف لتتم في شروط أمنية جيدة، وفي أقصى درجات الهدوء والإطمئنان، ولعل أقامته بمراكش تحدث النتائج التي يحق لنا أن ننتظرها منها فيما يتعلق بأقرار السلطة والنفوذ الشريفي وبتقديم العامل الأكثر فعالية ضد عودة أحداث مثل تلك التي تميزت بها هذه الأشهر الأخيرة(1).

وقد تزامنت هذه الزيارة مع الحركات التي نظمت من طرف القوادالأطلس لتطويع المنطقة وملاحقة أحمد الهيبة، وقد ظهرت هذه الحركات بشكلها وتأطيرها وكأنها مغربية ومخزنية صرفة، وهو ما يدخل في صلب هدف المخطط.

وقد استخلص اليوطي عن هذه الخطة أول خلاصاته السياسية بقوله: "إن أهم ما تحقق منذ الاحتلال ... هو عمل هؤلاء القادة الكبار ، ليس بنتائجه فقط، بل بمعناه السياسي، إنه يعطي نموذج المثال الذي ينبغي بلوغه لمتابعة عمل فرنسا في المغرب، عمليات مخزنية تتم بوسائل مغربية تحت قيادتنا الفعلية، ولكن بصفة غير مكشوفة، بمساعدتنا ولكن تحت المظلة الشريفة، إنها أول تجربة نجحت وخلقت بذلك سابقة سيكون من المفيد تكرارها إذا سمحت الفرصة بذلك"(2).

إنها بالفعل خطة لمغربة الإحتلال، سكت اليوطي عن تهنئة نفسه وعن تهنئة السلطان بعد عودته من حركة الجنوب في نونبر 1912 بقوله: "أنا وإن حصل لنا اسف كبير سبب فراقكم من هذه المدة لمعترفون بأن هذه الغيبة قد أسفرت على نتائج يتعين علينا أن نسر بها سرورا عظيما فيما يرجع لتوطيد مركز الأمن بالأيالة، وقد زاد خصام جلالتكم بالعاصمة المراكشية تأكيدا في السلطة الشريفة بسائر جنوب المملكة، وحصلت الشخصية جملة نتائج لها بال بالنواحي السوسية، ومن المعلوم أن مرور جلالتكم بمختلف القبائل التي لم تطأ قدم سلطان منذ مدة طويلة قد زاد تأكيدا من نفوذ الكلمة المخزنية في نظر الشعب كله"(3).

---

(1) اليوطي، تعليمات... مراكش 6اكتوبر 1912 .

(2) Archives militaires de Vincennes , BM 2 / 1955

(3) Rivet, Lyautey... T.1, p 73

لقد تمكن اليوطي، بفضل مخططه السياسي، أن يحقق هدفه المنشود وهو جعل قواد الأطلس أداة طيعة بيد القوات الإستعمارية الفرنسية، توظفها لأغراضها السياسية كما تشاء، وهذا ما تحقق فعلا بعد ظهور حدث جديد ارتبط بوضعية القوات الفرنسية في المغرب بعد إندلاع الحرب العالمية الأولى.

2ـ الأطلس الكبير إبان إندلاع الحرب الأولى :

مع إندلاع الحرب الأولى، وضعت القوات الفرنسية في المغرب، مرة أخرى، أمام إمتحان عسير. كيف كان بأمكان فرنسا أن توفق بين الدفاع عن شرقها في أوروبا وأن تحتفظ في نفس الوقت بقواتها ومواقعها داخل مستعمراتها ؟

لقد استلزمت ظروف الحرب من فرنسا إستدعاء عدد كبير من قواتها للإلتحاق بفرنسا ، وفي هذا الإطار صدرت تعليمات المقيم العام اليوطي بتاريخ 27يوليوز 1914 تقول: "ينبغي في حالة الحرب أن تهدف جهودكم إلى الإحتفاظ في المغرب بأدنى حد من القوات التي لا يمكن الإستغناء عنها.. ينبغي إخلاء كل المراكز الأمامية وأن يقتصر إحتلال المغرب على الموانئ الرئيسية.."(1).

كان اليوطي يعتقد أن الخطة المقترحة بسحب القوات من الداخل نحو السواحل، لها مضاعفات وإنعكاسات خطيرة، فهي خطة قد تسبب في ضياع كل الجهود التي بدلت منذ البداية، وقد تؤدي إلى فناء القوات الفرنسية قبل مغادرتها للمغرب، فكان جوابه على برقية وزير الخارجية الفرنسي هو إقتراح خطة بديلة تقوم على قلب معادلة الإنسحاب، أي إخلاء السواحل وحشر كل القوات الجاهزة في الداخل وبالأخص في الخطوط الأمامية لمواجهة النقط الساخنة والإحتفاظ بالمنطقة المحتلة. فما هي مكانة قواد الأطلس الكبير داخل هذا المخطط ؟

فيما يخص مكانة القواد الكبار في الأطلس، كان اليوطي يقدر جسامة الوضع في الجنوب، فقد أعلن في نفس البرقية التي وجهها إلى الحكومة الفرنسية بتاريخ 28يوليوز 1914 ما يلي: "إن الجلاء عن مدينة مراكش سيؤدي حتما إلى ثورة الجنوب،

Lyauey , P. Lyautey... T.2, p 228. (1)

لأن القواد الكبار وإن حاولوا الثبات معنا فأنهم لا يستطيعون ذلك إلا مؤقتا وسيجد الهيبة او أي قائم آخر الوسيلة لتزعم الحركة... وأخيرا ستشهد حركة إنتقام شعبية من جميع الذين اشتغلوا معنا ومن كل من تعلق بنا"(1).

لم يكن من السهل على القوات الفرنسية أن تطمئن على وجود المغرب عموما، وفي المجالات الأطلسية الوعرة على وجه الخصوص، إلا إذا تأكدت مرة أخرى من استمرار ولاء وإخلاص قواد الأطلس الكبير، لذلك قام قائد ناحية مراكش وهو دولاموط Delamotte وجمع قواد الأطلس بتاريخ 20غشت 1914 وأخبرهم بأندلاع الحرب في أوروبا بين ألمانيا وفرنسا وما تستلزمه الحالة من تعبئة وتجنيد للدفاع عن شرق فرنسا، والتزم قواد الأطلس أمام دولاموط لاحفاظ على إستقرار الأوضاع داخل مناطق نفوذهم، بشرط ألا يتدخل أي أجنبي اوروبي في شؤونهم ، وأكد المدني الكلاويبأسم سائر القوادمساندته المطلقة لفرنساووفائه وإخلاصه لها.

ولم يخف دولاموط إحساسه آنذاك بالخوف والحذر الذي عبر عنه بوضوح، فقال: "نعيش في بلد مجهول، كل شيء فيه كان موكولا إلى هؤلاء الأسياد الذين لم نكن نقتنع بأخلاصهم لنا، إذا قاموا ضدنا فسوف نكون مرغمين على ترك نصف البلاد، خصوصا وأن الألمان يدفعونهم للثورة علينا، لقد كنا مرهونين بين أيديهم"(2).

ورغم خطورة الموقف فأن مناطق نفوذ قواد الأطلس لم يسجل بها أي تحرك ضد فرنسا، نظرا للسياسية التي نهجها هؤلاء الأسياد لقمع وضبط تحركات قباءل الأطلس. وقد أوضح الضابط سولاي Saulay في تقرير له مدى إبتهاجه للوضع داخل المجال الأطلسي طوال فترة الحرب بقوله: "خلال مدة الحرب لم يجل أي تحرك ضدنا داخل جبال الأطلس فحسب، بل لم يتوقف تأثيرنا السياسي ولو برهة واحدة وامتد لكل القبائل التي أخذت تدخل تحت مراقبتنا بدون مقاومة"(3).

(1) علال الفاسي، المغرب بين الحربين،ص 25-26 .

(2) Tharaud, Les seigneurs de l'Atlas, p205.

(3) Saulay, Rapport CHEAM, p5.

لقد أدت الطبيعة الجبلية الوعرة للأطلس الكبير إلى ظهور خطة سياسية إستعمارية ارتبطت بالجبل، واعتمدت بالدرجة الأولى على توظيف الأطر المحلية لضمان استقرا ر وأمن السلطات الإستعمارية، وزادت هذه الخطة وضوحا مع تتابع الأحداث التي واكبت الحضور الإستعماري في سنواته الأولى (1912-1914)، فما أفرز ما سمي بسياسة القوادالكبار الذين اصبحوا أداة طيعة بيد القوات الفرنسية توظفها كما تشاء. كما أن قواد الأطلس بدورهم ، قد أفلحوا في التكيف مع الوضع الجديد واكتسبوا بسبب ذلك موقعا جديدا في الخريطة السياسية التي وضعها الاستعمار، ويمكن أن نعتبر بأن هذا التكيف كان من الصفات التي تميز بها قواد الأطلس الذين كانوا على درجة كبيرة من الواقعية السياسية بهدف الحفاظ على مواقعهم وحماية مصالحهم وامتيازاتهم، وقد أشار إلى ذلك أحمد التوفيق (1) بقوله: "إنهم استطاعوا التكيف مع التقلبات السياسية بهدف الإحتفاظ بنفوذهم وسلطتهم " .

---

(1) التوفيق ، اينولتان.. ص 612 .